بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب « عرش الرحمن » ، وما ورد فيه من الآيات والأحاديث وكونه فوق العالم كله ، ومعنى التوجه فى الدعاء إلى جهة العلو ، وبطلان ما قيل من أن العرش هو الفلك التاسع عند علماء الهيئة اليونانية [1]

سُئِلَ شيخنا وسيدنا شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية أعاد الله تعالى من بركته .. آمين : ما تقول فى العرش ، هل هو كرى أم لا ؟ فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما فائدة أنَّ العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون غيره ؟ فلا فرق حينئذ - وقت الدعاء - بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصداً بطلب العلو لا يلتفت يمينه ولا يساره ، فأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا وقد فُطِرنا عليها ، وابسطوا لنا الجواب فى ذلك .

أجاب رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، الجواب عن هذا بثلاث مقامات :

• المقام الأول : أنه لم يثبت أن العرش هو الفلك التاسع ، وأنَّ الحوادث ناشئة عن حركة الأفلاك :

أحدها : إن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يُعتمد عليه أنَّ العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل ، لا بدليل شرعى ولا دليل عقلى ، وإنما ذكر طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيئة وغيره من أجزاء الفلسفة فرأوا أنَّ الأفلاك تسعة ، وأنَّ التاسع - وهو الأطلس - محيط بها مستدير كاستدارتها ، وهو الذى يحركها الحركة المشرقية وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة ، ثم سمعوا فى أخبار الأنبياء ذكر عرش الله وذكر كرسيه وذكر السموات السبع ، فقالوا بطريق الظن : إنَّ العرش هو الفلك التاسع ، لاعتقادهم

---

(١) كان موضع هذا الكتاب - فى الطبعة الأولى - نهاية الجزء الرابع ، ولكنا رأينا نقله إلى نهاية الجزء الخامس لاتساقه مع موضوعاته (البلتاجى) .

أن ليس وراء ذلك التاسع شئ ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق ، ثم إنَّ منهم مَن رأى أنَّ التاسع هو الذى يحرك الأفلاك كلها فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أنَّ اللّه تعالى يحدث فيه ما يُقدِّره فى الأرض أو يُحدثه فى النفس التى زعموا أنها متعلقة به ، أو فى العقل الذى زعموا أنه صدر عنه هذا الفلك ، وربما سماه بعضهم « الروح » ، وربما جعل بعضهم ذلك النفس هو اللوح المحفوظ ، كما جعل العقل هو العلم ، وتارة يجعلون اللوح هو العقل الفعّال العاشر الذى لفلك القمر والنفس المتعلقة به . وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان يُقَدِّر فيه ما يفعله قبل أن يكون ... إلى غير ذلك من المقالات التى قد شرحناها وبيَّنا فسادها فى غير هذا الموضع . ومنهم مَن يدّعى أنه عَلِمَ ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ويكون كاذباً فيما يدّعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم أو موافقة لهم على طرقهم الفاسدة ، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا [1] وأمثالهم .

وقد ينتحل المرء فى نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً كما ينتحل النصرانى التثليث الذى يعتقده ، وقد يرى ذلك فى منامه فيظنه كشفاً ، وإنما يخيل لما اعتقده [2] ، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفوسهم فتتمثل لهم اعتقاداتهم فيظنونها كشفاً ، وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) إخوان الصفا : جماعة سرية مزجت الدين والسياسة بالفلسفة ، ظهرت بالبصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ألفت رسائل تربو على الخمسين ، وتكوِّن ما يشبه دائرة معارف. شمل التآلف والصفاء هذه الجماعة ، ومن ثَمَّ كان اسمها ، وهى وثيقة الصلة بالشيعة وبالإسماعيلية الباطنية ، ولذا بدا مذهبها تلفيقياً يأخذ من كل علم بطرف . وتقع رسائلها فى أربعة أقسام : الرياضيات ، والطبيعيات ، والعقليات ، والإلهيات ، بالإضافة إلى الرسالة الجامعة لكل ما جاء بالرسائل ، أهم أعلامها : محمد بن مشير البستى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، ومحمد ابن أحمد النهرجورى ، والعوضى ، وزيد بن رفاعة (البلتاجى) .

(٢) لعل أصله : يخيل إليه ما اعتقده ، وأنَّ بعض النصارى يرون فى المنام وفى حال تغلب الخيال عند أولى المزاج العصبى فى اليقظة السيد المسيح أو السيدة مريم عليهما السلام أو غيرهما من الحواريين ومَن دونهم ، ويسمعون منهم ما يوافق عقائدهم كما يقع لكثير من المسلمين فيغترون بهذه الخيالات .

• خطأ القائلين بأنَّ العرش هو الفلك التاسع :

والمقصود هنا أنَّ ما ذكروه من أنَّ العرش هو الفلك التاسع قد يقال إنه ليس لهم عليه دليل لا عقلى ولا شرعى ، أما العقلى .. فإنَّ أئمة الفلسفة مصرِّحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أنَّ الأفلاك هى تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه . وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه .

مثال ذلك : أنهم علموا أنَّ هذا الكوكب تحت هذا بأنَّ السفلى يكسف العلوى من غير عكس ، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا فى الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التدوير وغيره ، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقه . وكذلك قول القائل : « إنَّ حركة التاسع مبدأ الحوادث » خطأ وضلال على أصولهم ، فإنهم يقولون : إنَّ الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولتلك الحركة قطبان غير قطبى التاسع ، وكذلك السابع والسادس .

• بطلان قولهم بما يترتب على حركات الأفلاك وأشكالها :

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه ، والحركات المختلفة هى سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية ، وتلك الاشكال سبب الحوادث السفلية ، كانت حركة التاسع جزء السبب كحركته ، فالأشكال الحادثة فى الفلك كمقارنة الكوكب للكوكب فى درجة واحدة ، ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك وهو مائة وثمانون درجة ، وتثليثه إذا كان بينهما ثُلث الفلك مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما رُبعه تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سُدس الفلك ستون درجة - وأمثال ذلك من الأشكال - إنما حدثت بحركات مختلفة ، وكل حركة ليست عن الأخرى ، إذ حركة الثامن التى تخصه ليست عن

حركة التاسع وإن كان تابعاً له فى الحركة الكلية كالإنسان المتحرك فى السفينة إلى خلاف حركتها . وكذلك حركة السابع التى تخصه ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك فإنَّ حركة كل واحد التى تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك ، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه مَن ظن أنه العرش ؟ كيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلاً ، فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة لا باعتبار القوابل وأسباب أُخر ، ولكن هم قوم ضالون يجعلونه مع هذا ثلثمائة وستين درجة ، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى لا باختلاف القوابل ، كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر لا بحسب القوابل بل يجعل أحد جزئيه مسخناً والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً ، والآخر مشقياً ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال ، وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفى وجود شئ آخر فوق الأفلاك التسعة كان يجزم [1] أنَّ ما أخبرت به الرسل من العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب وقولاً بلا علم .

هذا كله على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة ، إذ فى ذلك النزاع والاضطراب ، وفى أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه ، وإنما نتكلم على هذا التقدير أيضاً [2] فالأفلاك فى أشكالها وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى الخامس . وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع .

---

(١) لعل أصله : كان جزمه أو جزمهم بأنَّ ما أخبرت الرسل ... إلخ .

(٢) يعنى الشيخ رحمه الله أنه يبنى إبطال قولهم على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة جدلاً وهى غير ثابتة بدليل صحيح ، ونقول : إنه قد تبيَّن بعده بما ارتقى إليه علم الهيئة الفلكية بالآلات الحديثة المقربة للأبعاد بطلان القول بالأفلاك التسعة التى تخيلها اليونان وتبعهم فيها علماء العرب .

● الآيات والأحاديث فى العرش تنفى كونه الفلك التاسع :

وأما العرش .. فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ (٢) فأخبر أنَّ للعرش حملة اليوم ويوم القيامة ، وأنَّ حملته ومَن حوله يُسَبِّحون ويستغفرون للمؤمنين ، والمعلوم أنَّ قيام فلك من الأفلاك بقُدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك لا فرق فى ذلك بين كرة وكرة ، وإن قُدِّر لبعضها فى نفس الأمر ملائكة تحملها فحكمه حكم نظيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) فذكر هنا أن الملائكة تحف من حوله ، وذكر فى موضع آخر أنَّ له حملة ، وجمع فى موضع ثالث بين حملته ومَن حوله ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾(٤) وأيضاً فقد أخبر أنَّ عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٥) .

وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السموات والأرض » ، وفى رواية له : « كان الله ولم يكن

---

(١) غافر : ٧ (٢) الحاقة : ١٧ (٣) الزمر : ٧٥
(٤) غافر : ٧٥ (٥) هود : ٧

شئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شئ » ، وفى رواية لغيره صحيحة : « كان الله ولم يكن شئ معه ، وكان عرشه على الماء ، ثم كتب فى الذكر كل شئ » .

وثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : « إنَّ الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .. فهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهو سبحانه وتعالى يُتمدح بأنه ذو العرش المجيد كقوله سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِى العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ، لاَ يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ، للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٣) - وقد قُرِئَ : « المجيدُ » بالرفع صفة لله ، وقُرِئَ بالخفض صفة للعرش - وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ ، قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ (٤) فوصف العرش بأنه مجيد ، وأنه عظيم .

وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ ﴾ (٥) فوصفه بأنه كريم أيضاً ، وكذلك فى الصحيحين عن ابن عباس

---

(١) الإسراء : ٤٢ (٢) غافر : ١٥ (٣) البروج : ١٤ - ١٦
(٤) المؤمنون : ٨٦ - ٨٧ (٥) المؤمنون : ١١٦

رضى الله عنهما أنَّ النبى ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلاَّ الله رب العرش العظيم ، لا إله إلاَّ الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فوصفه فى الحديث بأنه عظيم وكريم أيضاً .

فيقول القائل المنازع : إنَّ نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، فلو كان العرش من جنس الأفلاك لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر كما لم يوجب ذلك تخصيص سماء دون سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء .

وإنما امتاز عما دونه بكونه أكبر كما تمتاز السماء العليا على الدنيا ، بل نسبة السماء إلى الهواء ونسبة الهواء إلى الماء والأرض كنسبة فلك إلى فلك . ومع هذا فلا يُخص واحد من هذه الأجناس عما يليه بالذكر ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة ، وقد عُلِمَ أنه ليس سبباً لذاتها ولا لحركاتها ، بل لها حركات تخصها فلا يجوز أن يُقال إنَّ حركته هى سبب الحوادث ، بل إن كانت حركة الأفلاك سبباً للحوادث فحركات غيره التى تخصه أكثر ، ولا يلزم من كونه محيطاً بها أن يكون أعظم من محموعها ، إلا إذا كان له من الغلظ ما يقاوم ذلك ، وإلا فمن المعلوم أنَّ الغليظ إذا كان متقارباً مجموع الداخل أعظم من المحيط ، بل قد يكون بقدره أضعافاً ، بل الحركات المختلفة التى ليست عن حركته أكثر لكن حركته تشملها كلها .

• أحاديث ذُكِر فيها صفات العرش :

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن جويرية بنت الحارث أنَّ النبى ﷺ دخل عليها وكانت تُسبِّح بالحصى إلى الضحى فقال : « لقد قلتُ كلمة تعدل كلمات لو وُزِنَت بما قلتيه لوزنتهن : سبحان الله زِنة عرشه ، سبحان الله رِضا نفسه ، سبحان

اللّه مداد كلماته » [1] ، فهذا يبيّن أنّ زِنة العرش أثقل الأوزان ، وهم يقولون : إنّ الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل ، بل يدل على أنه وحده أثقل ما يُمثّل به ، كما أنّ عدد المخلوقات أكثر ما يُمثّل به .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد قال : جاء رجل من اليهود إلى النبى ﷺ قد لُطِمَ وجهه فقال : يا محمد ، رجل من أصحابك لطم وجهى . فقال النبى ﷺ : « ادعوه » فقال : « لِمَ لطمتَ وجهه » ؟ فقال : يا رسول اللّه ، إنى مررتُ بالسوق وهو يقول : والذى اصطفى موسى على البَشر ، فقلت : يا خبيث ، وعلى محمد ؟ فأخذتنى غضبة فلطمته ، فقال النبى ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإنّ الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول مَن يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقته » ، فهذا فيه بيان أنّ للعرش قوائم ، وجاء ذكر القائمة بلفظ الساق ، والأفلاك متشابهة فى هذا الباب .

• زنة العرش وقوائمه واهتزازه وكونه فوق الجنة :

وقد أخرجا فى الصحيحين عن جابر قال : سمعتَ النبى ﷺ يقول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » قال : فقال رجل لجابر : إنّ البراء يقول : اهتز السرير قال : إنه كان بين هذين الحيين - الأوس والخزرج - ضغائن .

---

(١) لهذه الحديث فى مسلم وكذا فى السُّنَن لفظان عن جويرية رضى اللّه عنها ، أحدهما أنّ النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلّى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال : « ما زلتِ على الحال التى فارقتك عليها » ؟ قالت : نعم . قال النبى ﷺ : « لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزِنَت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان اللّه وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزِنة عرشه ، ومِداد كلماته » .

واللفظ الآخر أنه قال : « سبحان اللّه عدد خلقه ، سبحان اللّه رضا نفسه ، سبحان اللّه زنة عرشه ، سبحان اللّه مداد كلماته » ، وليس فى الرواية أنها كانت تُسبِّح بالحصى ، ولعله قد ثبت عنها فى رواية أخرى كما ثبت عن صفية رضى اللّه عنها ، والحديث ذكره أبو داود فى باب التسبيح بالحصى ، ولكنه ذكر التسبيح بالحصى عن غيرها .

سمعتُ نبى اللّه ﷺ يقول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » ، ورواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس أنَّ النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم قال - وجنازة سعد موضوعة : « اهتز لها عرش الرحمن » .

وعندهم أنَّ حركة الفلك التاسع دائمة متشابهة ، ومَن تأوَّل ذلك على أنَّ المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم فلا بد له من دليل على ما قال .

كما ذكر أبو الحسين الطبرى وغيره أنَّ سياق الحديث ولفظه ينفى هذا الاحتمال .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن آمن باللّه ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة ، هاجر فى سبيل اللّه أو جلس فى أرضه التى وُلِدَ فيها » ، قالوا : يا رسول اللّه ، أفلا نُبشِّر الناس بذلك ؟ قال : « إنَّ فى الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين فى سبيله ، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة » .

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد : أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « يا أبا سعيد ، مَن رَضِىَ باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة » فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىَّ يا رسول اللّه ، ففعل قال : « وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال : وما هى يا رسول اللّه ؟ قال : « الجهاد فى سبيل اللّه » .

وفى صحيح البخارى أنَّ أم ربيع بنت البرَّاء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول اللّه ، ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قُتِلَ يوم بدر أصابه سهم غَرْب [1] - فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ

---

(١) بفتح الراء وسكونها ، أى لا يُعرف راميه .

عليه فى البكاء . قال : « يا أم حارثة ، إنها جنان فى الجنة ، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

فهذا قد بيَّن أنَّ العرش فوق الفردوس الذى هو أوسط الجنة وأعلاها ، وأنَّ الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها . والحديث الثانى يوافقه فى وصف الدرج المائة ، والثالث يوافقه فى أنَّ الفردوس أعلاها .

وإذا كان العرش فوقه فلقائل أن يقول : إذا كان كذلك كان فى هذا من العلو والارتفاع ما لم يُعْلم بالهيئة ، إذ لا يُعلم بالحساب أنَّ بين التاسع والأول كما بين السماء والأرض مائة مرة ، بل عندهم أنَّ التاسع ملاصق للثامن . فهذا قد بيَّن أنَّ العرش فوق الفردوس الذى هو أوسط الجنة وأعلاها . وفى حديث أبى ذر المشهور قال : قلت : يا رسول اللّه ، أيما أُنزل عليكَ أعظم ؟ قال : « آية الكرسى » ، ثم قال : « يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسى إلاَّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » .. والحديث له طرق وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه وأحمد فى المسند وغيرها .

● تشبيه العرش بالقُبَّة لا يدل كونه فلكاً :

وقد استدل مَن استدل على أنَّ العرش مقبب بالحديث الذى فى سُنَن أبى داود وغيره عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول اللّه ﷺ أعرابى فقال : يا رسول اللّه ، جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال ، فادع اللّه لنا . فإنَّا نستشفع بك على اللّه ونستشفع باللّه عليك . فسبح رسول اللّه ﷺ حتى عُرِف ذلك فى وجوه أصحابه وقال : « ويحك ، أتدرى ماتقول ؟ إنَّ اللّه لا يُستشفع به على أحد من خلقه . شأن اللّه أعظم من ذلك . إنَّ اللّه على عرشه ، وإنَّ عرشه على سماواته وأرضه لهكذا - وقال بأصابعه - مثل القُبَّة » ، وفى لفظ : « وإنَّ عرشه فوق

سماواته ، وسماواته فوق أرضه ، لهكذا » وقال بأصابعه مثل القُبَّة [1] . وهذا الحديث وإن دل على التقبب ، وكذلك قوله عن الفردوس : « إنها أوسط الجنة وأعلاها » مع قوله : « وإنَّ سقفها عرش الرحمن » أو « إنَّ فوقها عرش الرحمن » ، والأوسط لا يكون الأعلى إلا فى المستدير ، فهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، بل إذا قُدِّر أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه ، سواء قال القائل : إنه محيط بالأفلاك أو قال : إنه فوقها .وليس يحيط بها ، كما أنَّ وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض وإن لم يكن محيطاً بذلك . وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القُبَّة . ومعلوم أنَّ الفلك مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القُبَّة يستلزم استدارة من العلو لا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل ، ولفظ الفلك يستدل به على الاستدارة مطلقاً ، فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ ، كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [3] يقتضى أنها فى

---

(١) لهذا الحديث بقية وألفاظ مختلفة ، قال البيهقى بعد إيراده فى الأسماء والصفات عن أبى داود : وهذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة ، وصاحبا الصحيح لم يحتجا به ، إنما استشهد مسلم بن الحجاج بمحمد بن إسحاق فى أحاديث معدودة أظنهن خمسة قد رواهن غيره . وذكره البخارى فى الشواهد ذكراً من غير رواية ، وكان مالك بن أنس لا يرضاه ، ويحيى بن سعيد القطان لا يروى عنه ، ويحيى بن معين يقول : ليس هو بحُجَّة ، وأحمد بن حنبل يقول : يُكتب عنه هذه الأحاديث - يعنى المغازى ونحوها - فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا - يريد أقوى منه - فإذا كان لا يُحتج به فى الحلال والحرام فأولى أن لا يُحتج به فى صفات الله سبحانه . وإنما نقموا عليه فى روايته عن أهل الكتاب ثم عن ضعفاء الناس وتدليسه أساميهم .

فإذا روى عن ثقة وبيَّن سماعه منه فجماعة من الأئمة لم يروا به بأساً . وهو إنما روى هذا الحديث عن يعقوب بن عتبة ، وبعضهم يقول : عن عتبة وعن محمد بن جبير ولم يبيِّن سماعه منهما . واختلف عليه فى لفظه كما ترى . أ هـ . فجملة القول أنَّ هذا الحديث لا يصح ، ولعل الشيخ أورده استيفاء للروايات النافية لأقوال أهل الهيئة .

(٢) الأنبياء : ٣٣ (٣) يس : ٤٠

فلك مستديرة مطلقاً كما قال ابن عباس رضى الله عنه : فى فلكة مثل فلكة المغزل . وأما لفظ القبة فإنه لا يعترض هذا المعنى لا بنفى ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو كالقبة الموضوعة على الأرض ، وقد قال بعضهم : إنَّ الأفلاك غير السموات ، لكن رد عليه غيره هذا القول بأن الله تعالى قال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (١) فأخبر أنه جعل القمر فيهن ، وقد أخبر أنه فى الفلك (٢) .

• علم البَشر بالأسباب والسُنَن فى الكون قليل بالنسبة إلى ما يجهلون :

وليس هذا موضع بسط الكلام فى ذلك ، وتحقيق الأمر فيه وبيان أنَّ ما عُلِم بالحساب علماً صحيحاً لا ينافى ما جاء به السمع ، وأنَّ العلوم السمعية الصحيحة لا تنافى معقولاً صحيحاً ، إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله فى غير هذا الموضع ، فإنَّ ذلك يُحتاج إليه فى هذا ونظائره مما قد أشكل على كثير من الناس حيث يرون ما يُقال إنه معلوم بالعقل مخالفاً لما يقال إنه معلوم بالسمع، وأوجب ذلك أن كذَّبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه . حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام أن تكلموا فى معارضة الفلاسفة فى الأفلاك بكلام ليس معهم به حُجَّة لا من شرع ولا من عقل ، وظنوا أنَّ ذلك من نصر الشريعة ، وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلة الشرعية أيضاً .

---

(١) نوح : ١٥ - ١٦

(٢) الذى يفهمه أهل اللغة من الفلك هنا أنه مدار الكواكب ، وعبارة القاموس : مدار النجوم، قال : ومن كل شىء مستداره ومعظمه ، وهذا غير المراد من الفلك عند علماء الهيئة اليونانية فهو عندهم جسم مستدير صلب شفاف لا يقبل الخرق والالتئام ، وكل فلك من الأول إلى السابع فيه كوكب من الدرارى السبع يدور فيه ، والثامن للنجوم الثابتة كلها ، والتاسع أطلس ليس فيه شىء .

• الكلام فى العرش على تقدير أن الفلك التاسع وكل تقدير محتمل :

وأما المتفلسفة وأتباعهم فغايتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات ولا يعلمون ما وراء ذلك ، مثل أن يعلموا أنَّ البخار المتصاعد ينعقد سحاباً ، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت به [1] ... ونحو ذلك ، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأنَّ المنى يصير فى الرحم جنيناً ، لكن ما الموجب للمنى المتشابه الأجزاء أن يُخلق منه الأعضاء المختلفة والمنافع المختلفة على هذا الترتيب المحكم المتقن الذى فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الألباب ، وكذلك ما الموجب لأن يكون الهواء أو البخار ينعقد سحاباً مقدَّراً بقدر مخصوص فى وقت مخصوص على مكان يختص به ، وينزل على قوم عند حاجتهم اليه فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا . وما الموجب لأن يساق إلى الأرض الجُرُز التى لا تمطر أو تمطر مطراً لا يغنيها كأرض مصر ، أو كان المطر القليل لا يكفيها والكثير يهدم أبنيتها ؟ [2] قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [3] .

---

(١) يعنون بهذا الصوت : الرعد ، وهو قول باطل لم يجدوا ما يعللون به صوت الرعد غيره . وأما علماء الكون فى هذا العصر فقد ثبت عندهم أن البرق والرعد يحدثان من اشتعال الكهربائية بالتقاء الإيجابى منها بالسلبى ، وبهذا الاشتعال يحدث تفريغ فى الهواء يكون له صوت بقدره كما يحدث بإطلاق المدفع وهو صوت الرعد والصواعق .

(٢) إنَّ كون نزول المطر فى كل أرض بقدر حاجة أهلها لا يزيد ولا ينقص غير مسلَّم والمعلوم بالمشاهدة خلافه ، فكثيراً ما يزيد فيحدث ضرراً عظيماً . أو ينقص فتهلك الزروع وتقل الغلال وتحدث المجاعات ، وقد علم البَشر من سُنَن الله فى ذلك فى عصرنا أكثر مما كان يعلم مَن قبلهم ولا يزالون يجهلون منها أضعاف ما علموا .

(٣) السجدة : ٢٧

وكذلك السحاب المتحرك وقد عُلِمَ أنَّ كل حركة فإما أن تكون قسرية وهى تابعة للقاسر ، أو طبيعية ، وإنما تكون إذا خرج المطبوع من مركزه فيطلب عوده إليه أو إرادته وهى الأصل ، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التى تصدر عن ملائكة الله تعالى التى هى المدبِّرات أمراً والمقسمات أمراً ، وغير ذلك مما أخبر الله تعالى به عن الملائكة . وفى المعقول ما يصدِّق ذلك . فالكلام فى هذا وأمثاله له موضع غير هذا .

والمقصود هنا أن نبيِّن أنَّ ما ذُكر فى السؤال زائل على كل تقدير ، فيكون الكلام فى الجواب مبنياً على حُجَج علمية لا تقليدية ولا مسلَّمة ، وإذا بيَّنا حصول الجواب على كل تقدير - كما سنوضحه - لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع وإن كنا نعلم ذلك ، لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير وإثبات ذلك فيه طول لا يُحتاج إليه هنا ، فإن الجواب إذا كان حاصلاً على تقدير كان أحسن وأوجز .

* * *

المقام الثانى : فى صغر العالَم كله بالنسبة إلى عظمة خالقه

أن يقال : العرش سواء أكان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً بالفلك التاسع ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض محيطاً به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يُعلم أن العالَم العلوى والسفلى بالنسبة إلى الخالق تعالى فى غاية الصغر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال :

---

(١) الزمر : ٦٧

« يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أن الملك .. أين ملوك الأرض » ؟ .

وفى الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن عبد الله بن عمر : قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » ؟

وفى لفظ فى الصحيح عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى ﷺ قال : « يأخذ الله سماوته وأرضه بيده ويقول : أنا الملك ، ويقبض أصابعه ويبسطها ، أنا الملك » حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شئ منه حتى إنى أقول أساقط هو برسول الله ﷺ .

وفى لفظ قال : « رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : يأخذ الجبار سمواته وأرضه - وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها - ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار المتكبر ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً ، أنا الذى أعدتها ، أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » ؟ ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شئ منه حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟

والحديث مروى فى الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضاً ، وفى بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ ... الآية [1] ، قال : « مطوية فى كفه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة » .

---

(١) الزمر : ٦٧

وفى لفظ : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيجعلها فى كفه ثم يقول بها هكذا كما يقول الصبيان بالكرة : أنا اللّه الواحد » .

وقال ابن عباس : « يقبض عليهما فما يرى طرفاهما بيده » .

وفى لفظ عنه : « ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن بيد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم » ... وهذه الآثار معروفة فى كتب الحديث .

وفى الصحيحين عن عبد اللّه بن مسعود قال : أتى النبى ﷺ رجل يهودى ، فقال : يا محمد ، إنَّ اللّه يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، قال : فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر [1] ثم قال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ [2] ... إلى آخر الآية .

• صغر السموات والأرض بالنسبة إلى عظمة اللّه تعالى :

ففى هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسِّرة لها المستفيضة التى اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبيِّن أنَّ السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة اللّه تعالى أصغر من أن يكون مع قبضه لها إلا كالشىء الصغير فى يد أحدنا حتى يدحوها كما تدحى الكرة [3] .

---

(١) قوله : « تصديقاً لقول الحَبر » قال بعض شرَّاح الصحيحين : إنَّ هذه زيادة من الراوى قالها بحسب فهمه ، وهى ليست فى كل الروايات ، وأنكروا أن يكون ﷺ صدَّق اليهودى بل قالوا : إنه أراد الإنكار عليه وتلا الآية الدالة على ذلك . وخالفهم آخرون ، فراجع الأقوال فى شرح الحديث من كتاب التوحيد فى فتح البارى .

(٢) الزمر : ٦٧ (٣) دحا الكرة يدحوها : دحرجها .

• كلام ابن الماجشون فى الصفات رداً على الجهمية :

قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون الإمام - نظير مالك - فى كلامه المشهور الذى رد فيه على الجهمية ومَن خلفها [1] قال : فأما الذى جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً قد استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال : لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمى عن البيِّن بالخفى ، فجحد ما سمى الرب من نفسه فصمت الرب عما لم يسم منها فلم يزل يمثل له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [2] فقال : لا يراه أحد يوم القيامة ، فجحدوا الله أفضل كرامته التى أكرم الله أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونظرته له إياهم ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [3] ، وقد قضى أنهم لا يموتون ، فهم بالنظر إليه ينضرون - إلى أن قال : وإنما جحدوا رؤية الله يوم القيامة إقامة للحُجَّة الضالة المضلة ، لأنه قد عُرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً .

وقال المسلمون : يا رسول الله ، هل نرى ربنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون [4] فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب » ؟ قالوا لا ، قال: « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » ؟ قالوا : لا ، قال: « فإنكم ترون ربكم كذلك » ، وقال رسول الله ﷺ : « لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول : قط قط ، وينزوى بعضها إلى بعض » .

---

(١) أى من جاء بعد الجهمية ممن يقول قولهم .

(٢) القيامة : ٢٢ - ٢٣ (٣) القمر : ٥٥

(٤) يروى بتشديد الراء وتخفيفها . فالتشديد بمعنى : لا تتخالفون ولا تتجادلون فى صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره . وقال الجوهرى : أراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر إليه . وأما التخفيف فهو من الضير وهو لغة فى الضر .

وقال لثابت بن قيس : « قد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة » ، وقال فيما بلغنا عنه : « إنَّ الله يضحك من أزْلكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم » [1] ، وقال له رجل من العرب : إنَّ ربنا يضحك ؟ قال : « نعم » قال : لن نعدم من رب يضحك خيراً . وفى أشباه لهذا مما لم نحصه . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [2] ، ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [3] .. وقال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ [4] ، وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [5] ، وقال : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [6] .. فوالله ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم أنَّ ذلك الذى ألقى فى روعهم وخلق على معرفة قلوبهم . فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ، ولم نتكلف منه علم ما سواه لا هذا ولا هذا ، لا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف ... انتهى .

● صغر المخلوقات بالنسبة إلى عظمة الخالق وتصرفه تعالى بها :

وإذا كان كذلك فإذا قُدِّر أنَّ المخلوقات كالكرة فهذا قبضه لها ورميه بها .

وإنما بيَّن لنا من عظمته وصغر المخلوقات بالنسبة إليه ما يعقل نظيره منا .

ثم الذى فى القرآن والحديث يبيِّن أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذُكِر كما يفعل ذلك يوم القيامة ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، فهو قادر على أن يقبضها

---

(١) قال فى النهاية : هكذا يُروى فى بعض الطرق . والمعروف : « من إلكم » والإل والأزل - بالفتح : الشدة والضيق ، كأنه أراد : من شدة يأسكم وقنوطكم .

(٢) الشورى : ١١ (٣) الطور : ٤٨ (٤) طه : ٣٩

(٥) سورة ص : ٧٥ (٦) الزمر : ٦٧

ويدحوها كالكرة ، وفى ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، وبكل حال فهو مباين لها ليس بمحايث لها .

ومن المعلوم أنَّ الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها بل حولها تحته فهو فى الحالتين مباين لها ، وسواء قُدِّر أنَّ العرش هو محيط بالمخلوقات كإحاطة الكرة بما فيها ، أو قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذى نحن عليه بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة الى ما تحتها ... أو غير ذلك ، فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبد فى توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت .

* * *

المقام الثالث : فى الكلام عن العرش

وتمام هذا ببيان « المقام الثالث » وهو أن يقول : لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها وليس هو كرياً ، فإن كان الأول فمن المعلوم باتفاق مَن يعلم هذا أنَّ الأفلاك مستديرة كرية الشكل ، وأنَّ الجهة العليا هى جهة المحيط وهو المحدَّب ، وأنَّ الجهة السفلى هى المركز [1] ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلو والسفل فقط .

وأما الجهات الست فهى للحيوان فإنَّ له ستة جوانب يؤم جهة فتكون أمامه ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذى يمينه وجهة تحاذى شماله ، وجهة تحاذى رأسه ، وجهة تحاذى رجليه . وليس لهذه الجهات الست فى نفسها صفة

---

(١) أى لمركز الوسط من الداخل وهو المقعر الذى تكون جوانب المحيط بالنسبة إليه متساوية إذا كان المحيط متساوياً كمحيط الفلك عندهم لأنه كرة تامة ، وأما الأرض فهى كرة غير تامة لأنَّ فى محيطها تسطيحاً وانبطاحاً من جانبى قطبيها الشمالى والجنوبى ، فمركزها أقرب إليهما منه إلى سطح الأقاليم الاستوائية ، وناهيك بما فيها من الجبال ، ولكن المركز هو جهة السفل لها من كل جانب ، والسطح محيطها وهو جهة العلو من كل جانب ، وأما جهة العلو لمن على سطحها كالإنسان فهو ما فوق رأسه من السماء أينما كان .

لازمة ، بل هى بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا . لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هوالعلو ، والمركز هو السفل ، مع أنَّ وجه الأرض التى وضعها الله للأنام وأرساها بالجبال هو الذى عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والأنهار الجارية .

● مسألة كون الأرض « كرة » قطعية لا ظنية :

فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها وليس هناك شىء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قُدِّر أنَّ هناك أحد لكان على ظهر الأرض ولم يكن مَن فى هذه الجهة تحت مَن فى هذه الجهة ، ولا مَن فى هذه تحت مَن فى هذه ، كما أنَّ الأفلاك محيطة بالمركز وليس أحد جانبى الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالى تحت الجنوبى ولا بالعكس ، وإن كان الشمالى هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بُعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بُعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أنَّ جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك مَن يكون على الأرض من الحيوان والنبات لا يُقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو تحت إضافى ، كما لو كانت نملة تمشى تحت سقف فالسقف فوقها وإن كانت رجلاها تحاذيه ، وكذلك مَن عُلِّق منكوساً فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه على السماء ، وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان فى أحد جانبى الأرض أو الفلك أنَّ الجانب الآخر تحته [1] .

---

(١) كل ما قاله شيخ الإسلام فى الأرض فهو مبنى على كونها كرة كما جزم به علماء الهيئة المتقدمون والمتأخرون ومَن اطلع على هذا العلم وفهمه من علماء الإسلام الأعلام . وهذه مسألة قطعية لا ظنية ، وصرَّح بها ابن القيم من علماء الحديث بالتبع لأستاذه المؤلف وللإمام ابن حزم وإقتناعا بأدلتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ ... الآية (الزمر : ٥) ، فإنَّ التكوير هو اللف على الجسم الكرى المستدير كتكوير العمامة على الرأس ، وكذا قوله تعالى : =

• العلو والسفل فى كرة الأرض والفلك فيها :

وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة ، واستدارة الأفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب فهو الذى عليه علماء المسلمين كما ذكره أبو الحسين بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] قال ابن عباس : فى فلكة مثل فلكة المغزل ، والفلك فى اللغة هو المستدير [2] ومنه قولهم : تفلك ثدى الجارية : إذا استدار . وكل مَن جعل الأفلاك مستديرة يعلم أنَّ المحيط هو العالى على المركز فى كل جانب . ومَن توهم أنَّ من يكون فى الفلك من ناحيته يكون تحته مَن فى الفلك من الناحية الأخرى فى نفس الأمر فهو منوهم عندهم .

وإذا كان الأمر كذلك فإذا قُدِّر أنَّ العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاه وسقفها وهو فوقها مطلقاً فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو لا من جهته الباقية أصلاً .

ومَن توجه إلى الفلك التاسع أو الثامن أو غيره من الأفلاك من غير جهة العلو كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ، وغاية

= ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (النازعات : ٣٠) ، فإنَّ الدحو فى أصل اللغة دحرجة الكرة وما فى معناها . ولايعارضه قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ٢٠) كما توهم الجلال وغيره ، لأن وجه الكرة سطح لها ، والسطح فى اللغة أعم منه فى عُرف أهل الهندسة وكذلك الخط .

(١) الأنبياء : ٣٣

(٢) هذا معناه العام . وأما معناه الخاص بالكواكب فهو مدار الكوكب كما تقدم فى حاشية (ص ٢٨٩) وهو مستدير على كل حال سواء أكان كما قال المتقدمون من اليونان والعرب أم كان فضاء، فما نقله شيخ الإسلام من اتفاق علماء المسلمين على استدارة الأفلاك صحيح على كل حال ، فإن الكواكب كلها مستديرة كرية الشكل وأفلاكها التى تدور فيها كذلك ، والعالم كله كرى الشكل، وكل جُرم من أجرامه يسبح دائراً فى فلك له مستدير بنظام حسابى مطرد كما قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن : ٥) .

ما يقدَّر أن يكون كرى الشكل ، واللّه تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله [1] فإنَّ السمٰوات السبع فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا .

● العلو والسفل فى كرة الأرض والفلك فوقها :

وأما قول القائل : « إذا كان كرياً واللّه من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة أنَّ العبد يتوجه إلى اللّه حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون التحت ، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ؟ ومع هذا نجد فى قلوبنا قصداً بطلب العلو ، لا نلتفت يمنة ولا يسرة ، فأخبرونا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا وقد فُطِرْنا عليها » ؟

فيُقال له : هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أنَّ نصف الفلك يكون تحت الأرض وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط عظيم ، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق ، إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ، وأهل الهيئة يقولون : لو أنَّ الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا وأُلقى فى الخرق شئ ثقيل كالحجر ونحوه لكان ينتهى إلى المركز ، حتى لو أُلقى من تلك الناحية حجر آخر لالتقيا جميعاً فى المركز [2] ، ولو قُدِّر أنَّ إنسانين التقيا فى المركز بدل الحجر لالتقت رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك كالمشرق والمغرب ، فإنه لو قُدِّر أنَّ رجلاً بالمشرق فى السماء أو الأرض ، ورجلاً بالمغرب فى السماء أو الأرض لم يكن أحدهما تحت الآخر ، وسواء أكان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جنبه مما يلى السماء أو مما يلى الأرض ، وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه الآخر إلا من الجهة العليا ، لم يطلبه من جهة رجليه أو يمينه أو يساره . لوجهين :

---

(١) أما دليل إحاطته فقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَاللَّهُ من وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ (البروج : ٢٠) ، وأما قوله : « إحاطة تليق بجلاله » فلنفى التشبيه بإحاطة الأجسام بعضها ببعض ، على قاعدة السَلَف التى قررها شيخ الإسلام مراراً وهى الإيمان بالنصوص من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل .

(٢) هذا متفَق عليه بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الفلك ويعللون به جاذبية الثقل فهى تختلف بقدر بُعد المحيط عن المركز ، وهو يختلف فى المنطقة الاستوائية عن منطقتى القطبين كما أشرنا إليه فى حاشية (ص ٢٩٦) .

● توجه الذى يدعو اللّه إلى جهة العلو بفطرته وعلو الفلك :

أحدهما : أنَّ مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات ، فلو قُدِّر رجل أو مَلَك يصعد إلى السماء أو إلى ما فوق كان صعوده مما يلى رأسه إذا أمكنه ذلك ، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، ولا أنه يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد ، لأنَّ أى مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه ، وكان الفلك هناك فوقه ، فيكون ذهابه إلى الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة ، ولو أنَّ رجلاً أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنَّ الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب فتنحرف عن سمت الرأس ، فكيف بماهو فوق كل شئ دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى ؟ وكما أنَّ الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادى الذى يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب ؟ ويعدل إلى طريق منحرف طويل ؟ واللّه فَطَرَ عباده على الصحة والاستقامة إلا مَن اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التى فُطِرَ عليها .

● مقتضى الفطرة والعقل « طلب الشئ من طريقه المستقيم الأقرب » :

الوجه الثانى : أنه إذا قصد السفل بلا علو كان منتهى قصده المركز ، وإن قصده أمامه أو وراءه أو يمينه أو يساره من غير قصد العلو كان منتهى قصده أجزاء الهواء ، فلا بد له من قصد العلو ضرورة ، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها ، ولو فُرِضَ أنه قال : أقصده من اليمين مع العلو ، أو من السفل مع العلو كان هذا بمنزلة مَن يقول : أريد أن أحج من الغرب فأذهب إلى خراسان [1] ثم أذهب إلى مكة ، بل بمنزلة مَن يقول : أصعد إلى الأفلاك

---

(١) أى من الشام - حيث كان المؤلف - إلى خراسان ، ومعلوم أنَّ مكة فى الجهة الجنوبية للشام وخراسان فى الجهة الشرقية ، فالذهاب من الشام غرباً إلى خراسان فى الشرق ثم إلى مكة ممكن لأنَّ الأرض كرة ولكن هذا عمل لا يعمله مَن لا يريد بطواف أكثر محيط الأرض إلا مكة للحج إلا أن يكون مجنوناً . وإنما يفعله العاقل إذا كانت الرحلة إلى هذه الأقطار مقصودة لذاتها .

فأنزل فى الأرض لأصعد إلى الفلك من الناحية الأخرى ، فهذا وإن كان ممكناً فى المقدار ، لكنه يستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له ، وهو مخالف للفطرة ، فإنَّ القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق لا سيما إذا كان مقصوده معبوده الذى يعبده ويتوكل عليه . وإذا تَّوجه إليه على غير الصراط المستقيم كان مسيره منكوساً معكوساً .

وأيضاً فإنَّ هذا الجمع فى سيره وقصده بين النفى والإثبات ، بين أن يتقرب إلى المقصود ويتباعد عنه ، ويريده وينفر منه ، فإنه إذا توَّجه إليه من الوجه الذى هو عنه أبعد وأقصى ، وعدل عن الوجه الأقرب الأدنى ، كان جامعاً بين قصدين متناقضين ، فلا يكون قصده له تاماً ، إذ القصد التام ينفى نقيضه وضده ، وهذا معلوم بالفطرة ، فإنَّ الشخص إذا كان يحب النبى ﷺ محبة تامة ويقصده ، أو يحب غيره مما يحب - سواء أكانت محبة محمودة أو مذمومة - ومتى كانت المحبة تامة ، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه [1] بخلاف ما إذا كانت المحبة مترددة مثل أن يحب ما يكره محبته فى الدين فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده وعقله ينهاه عن ذلك فتراه يقصده من بعيد ، كما يقول العامة : « رِجْل إلى قدام ، ورِجْل إلى خلف » [2] ، وكذلك إذا كان فى دينه نقص وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من المقصودات التى تُحَب فى الدين ، وتكرهها النفس ، فإنه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد .. متباطئاً فى السير ، وهذا كله معلوم بالفِطرة .

وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذهاب بنفسه ، بل يريد خطاب المقصود ودعاءه ونحو ذلك . فإنه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاءه منها وينال به

---

(١) قوله : « طلبه من أقرب طريق » ... إلخ جواب « إذا » و « متى » - أى إذا كان يحب ما ذكر ، ومتى كانت محبته له تامة وطلبه بمقتضاها طلبه من أقرب طريق ، وفيه ما ترى من التعقيد .

(٢) مأخوذ من المثل العربى : « مالى أراك تُقدِّم رجلاً وتؤخر أخرى » .

مقصوده إذا كان القصد تاماً ، ولو كان رجلاً فى مكان عال ، وآخر يناديه لتوجّه إليه وناداه ولو حَطَّ رأسه فى بئر وناداه بحيث يسمع صوته لكان هذا ممكناً ، لكن ليس فى الفطرة أن يفعل ذلك مَن يكون قصده إسماعه من غير مصلحة راجحة ولا يفعل نحو ذلك إلا عند ضعف القصد ونحوه .

● معنى حديث : « لو أدلى أحدكم بحبل لسقط على اللّه » - على فرض صحته :

وحديث الإدلاء الذى رُوِىَ من حديث أبى هريرة وأبى ذر قد رواه الترمذى وغيره من حديث الحسن عن أبى هريرة وهو منقطع ، فإنَّ الحسن لم يسمع من أبى هريرة ، ولكن يقويه حديث أبى ذر المرفوع ، فإن كان ثابتاً فمعناه موافق لهذا [1] ، فإنَّ قوله : « لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على اللّه » إنما هو تقدير مفروض : لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكنه لا يمكن أن يُدلى أحد على اللّه شيئاً لأنه عال بالذات ، وإذا هبط شئ إلى جهة الأرض وقف فى المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى ، لكن بتقدير فرض الإدلاء ، لا يكون ما ذُكِرَ من الجزاء .

فهكذا ما ذكره السائل - إذا قُدِّر أنَّ العبد يقصده من تلك الجهة - كان هو سبحانه يسمع كلامه ، وإن كان متوجهاً إليه بقلبه ، لكن هذا ما يمتنع من الفطرة لأنَّ قصده للشيء التام ينافى قصد ضده ، فكما أنَّ الجهة العليا بالذات تنافى الجهة السفلى ، فكذلك قصد الأعلى بالذات ينافى قصده من أسفل ، فكما أنَّ ما يهبط إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية لأنها عالية فترد

---

(١) إنَّ شيخ الإسلام يعلم أنَّ الحديث غير ثابت وتقوية الضعيف للضعيف لا يُعتَد بها فى ثبوت حكم شرعى ، فعدم الاعتداد بها فى صفات اللّه أولى ولا سيما هذه المتشابهات . ولكنه يجيب عن الإشكال فيه بفرض وقوعه وعبَّر عنه بقوله : « إن كان ثابتاً » لأنَّ الأصل فى شرط « إن » عدم الوقوع لامتناعه أو لتنزيله منزلة الممتنع كما حققناه فى تفسير : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ (البقرة : ٢٣) من جزء التفسير الأول .

الهابط بعلوها ، كما أنَّ الجهة العليا من عندنا ترد ما يصمد إليها من الثقيل فلا يصعد الثقيل إلا برافع يرفعه يدافع به ما فى قوته من الهبوط ، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها وهو المركز ، لا يصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلا برافع يرفعه يدافع به ما فى قوته من الهبوط إلى المركز ، فإن قُدِّر أن الرافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية ، وصعد به إلى اللّه .

وإنما يسمى هبوطاً باعتبار ما فى أذهان المخاطبين أنَّ ما يحاذى أرجلهم يكون هابطاً ويسمى هبوطاً مع تسمية إهباطه إدلاء ، وهو إنما يكون إدلاءً حقيقياً إلى المركز ، ومن هناك إنما يكون مدخلاً للحبل والدلو لا إدلاءً له [1] .

• الجزاء والشرط فى الحديث مقدَّران لا محققان :

لكن الجزاء والشرط مقدَّران لا محققان ، فإنه قال : لو أدلى لهبط ، أى لو فَرِضَ أنَّ هناك هبوطاً ، وهو يكون إدلاءً وهبوطاً إذا قُدِّر أنَّ السموات تحت الأرض ، وهذا التقدير منتف ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلو من كل جانب .

وهذا المفروض ممتنع فى حقنا لا نقدر عليه ، فلا يُتصور أن يهبط على اللّه شئ ، لكن اللّه قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل ، ولكن لا يكون فى حقه إدلاء فلا يكون فى حقه هبوطاً عليه ، كما لو خرق بحبل من القُطب أو من مشرق الشمس إلى مغربها ، وقدَّرنا أنَّ الحبل مَرَّ فى وسط الأرض فإن اللّه قادر على ذلك كله ، ولا فرق بالنسبة إليه - على هذا التقدير - بين أن يخرق من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار ، أو من جهة أمامنا الى جهة خلفنا ، ومن جهة رءوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مر الحبل بالأرض . فعلى كل تقدير :

---

(١) كذا فى الأصل والمدح لا يظهر معناه هنا ، والذى يقتضيه المقام أن يُقال : إنَّ ما يمد أو يدفع من مركز الكرة إلى أى جانب من المحيط يكون مده أو دفعه رفعاً وإعلاءً له لا إدلاء ، لأنَّ المركز هو الأسفل والمحيط هو الأعلى كما تقدم .

قد خرق بالحبل من جانب المحيط إلى جانبه الآخر مع خرق المركز وتقدير إحاطة قبضته بالسموات والأرض . فالحبل الذى قُدِّر أنه خرق به العالَم وصل إليه ، ولا يسمى شئ من ذلك بالنسبة إليه لا إدلاء ولا هبوطاً .

● الجهات الست نسبية ليس لها حقيقة ثابتة :

وأما بالنسبة إلينا .. فإن ما تحت أرجلنا تحت لنا ، وما فوق رءوسنا فوق لنا ، وما ندليه من ناحية رءوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيل أنه هابط [1] ، فإذا قُدِّرَ أنَّ أحدنا أدلى بحبل كان هابطاً على ما هناك ، لكن هذا تقدير ممتنع فى حقنا .

والمقصود به بيان إحاطة الخالق تعالى كما بيَّن أنه يقبض السموات ويطوى الأرض .. ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته بالمخلوقات ، ولهذا قرأ فى تمام هذا الحديث : ﴿ هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

وهذا كله كلام - على تقدير صحته - فإنَّ الترمذى لما رواه قال : وفسَّره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله .

وبعض الحلولية والاتحادية يظن أنَّ فى هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل وهو أنه حالٌّ بذاته فى كل مكان ، أو أنَّ وجوده وجود الأمكنة .. ونحو ذلك .

والتحقيق أنَّ الحديث لا يدل على شئ من ذلك إن كان ثابتاً ، فإن قوله : « لو دلى بحبل لهبط » يدل على أنه [3] ليس فى المدلى ولا فى الحبل ولا فى الدلو ولا فى غير ذلك . وإنما يقتضى أنه من تلك الناحية .

---

(١) قوله : « نتخيل أنه هابط » - إنما سمى هذا تخيلاً لأنَّ الجهات الست المذكورة أمور نسبية لا حقيقة ثابتة فى نفسها .

(٢) الحديد : ٣

(٣) الضمير راجع إلى الله تعالى يعنى : أنه لو كان تعالى فى هذه الأشياء أو لو كان عينها لما صح التعبير الذى بُنِىَ على أنَّ هنالك حبلاً ودلواً وإنساناً مدلياً للدلو المعلق بالحبل ، وأنَّ غاية فعله وصول الحبل إلى الله الذى هو غير ما ذكر .

وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهره الفساد من جنس تأويلات الجهمية . بل تقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة ، والإحاطة قد عُلِمَ أنَّ الله قادر عليها ، وعُلِمَ أنها تكون يوم القيامة بالكتاب والسُنَّة [1] ، فليس فى إثباتها فى الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع ، لكن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه ، وما كان مقدمة دليله مشكوكاً فيها عند بعض الناس ، كان حقه أن يشك فيه حتى يتبين له الحق وإلا فليسكت عما لا يعلم .

● الإرادة الجازمة توجب فعل المريد بقدر ما عليه :

وإذا تبيَّن هذا ، فكذلك قصده بقصده إلى تلك الناحية ، ولو فُرِضَ أنَّا فعلناه لكنا قاصدين له على هذا التقدير ، لكن قصدنا له بالقصد إلى تلك الجهة ممتنع فى حقنا لأن القصد التام الجازم يوجب طلب المقصود بحسب الإمكان .

ولهذا قد بيَّنا فى غير هذا الموضع لما تكلمنا على تنازع الناس فى النيَّة المجرَّدة عن الفعل هل يعاقَب عليها أم لا يعاقَب ؟ بيَّنا أنَّ الإرادة الجازمة توجب أن يفعل المريد ما يقدر عليه من المراد . ومتى لم يفعل مقدوره لم تكن إرادته جازمة بل يكون هماً ، « ومَن هَمَّ بسيئة فلم يفعلها لم تُكتَب عليه ، فإن تركها لله كُتِبَ له حسنة » ولهذا وقع الفرق بين هَمِّ يوسف عليه السلام وهَمِّ امرأة العزيز كما قال الإمام أحمد : « الهمُّ همَّان : هَمُّ خطرات ، وهَمُّ إصرار ، فيوسف عليه السلام هَمَّ هَمّاً تركه لله فأثيب عليه ، وتلك همَّت هَم إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب » .

والذين قالوا : « يعاقَب بالإرادة » احتجوا بقوله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه » ، وفى لفظ : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .. فهذا أراد إرادة جازمة وفعل ما يقدر عليه وإن لم يدرك

---

(١) قوله : « بالكتاب والسُنَّة » متعلق : بـ « عُلِمَ » .

مطلوبه ، فهو بمنزلة امرأة العزيز ، فمتى كان القصد جازماً لزم أن يفعل القاصد ما يقدر عليه فى حصول المقصود ، وإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريق مستقيم امتنع مع القصد التام أن يحصِّله بطريق معكوس بعيد .

ولهذا امتنع فى فِطَر العبد عند ضرورتهم ودعائهم للّه تعالى وتمام قصدهم له أن يتوجهوا إليه إلا توجهاً مستقيماً ، فيتوجهون إلى العلو دون سائر الجهات ، لأنه الصراط المستقيم القريب ، وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه ، فمع القصد التام الذى هو حال الداعى العابد والسائر المضطر يمتنع أن يتوجّه إليه إلا إلى العلو ، ويمتنع أن يتوجّه إليه إلى جهة أخرى ، كما يمتنع أن يُدلى بحبل يهبط عليه ، فهذا هذا .. واللّه أعلم .

• شُرِعت الشريعة لتكميل الفِطرة :

وأما من جهة الشريعة .. فإنَّ الرسل صلوات اللّه عليهم بُعثوا بتكميل الفِطرة وتقريرها ، لا بتبديل الفِطرة وتغييرها . قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يُولد على الفِطرة وأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء » - أى مجتمعة الخلق سوية الأطراف ليس فيها نقص كجدع وغيره - « هل ترون فيها من نقص ؟ هل تحسون فيها من جدعاء » ؟

وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة ، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين المتفلسفة وغيرهم ، فإنهم غيَّروا الفِطرة فى العلم والإرادة جميعاً ، وخالفوا العقل والنقل ، كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

---

(١) الروم : ٣٠

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أنَّ النبى ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه فإنَّ اللّه قِبَل وجهه ، ولا عن يمينه فإنَّ عن يمينه ملكاً ، ولكن ليبصق عن يساره أو تحت رجله » ، وفى رواية : « أنه أُذِن أن يبصق فى ثوبه » .

• اقتضاء الفِطرة التوجه إليه تعالى بالدعاء فى جهة العلو كالشريعة :

وفى حديث أبى رزين المشهور الذى رواه عن النبى ﷺ لما أخبر النبى ﷺ : « أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه » فقال له أبو رزين : كيف يسمعنا يارسول اللّه وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال : « سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء اللّه ، هذا القمر آية من آيات اللّه كلكم يراه مخلياً به ، فاللّه أكبر » ، ومن المعلوم أنَّ مَن توجَّه إلى القمر وخاطبه إذا قُدِّر أن يخاطبه لا يتوجه إليه إلا بوجهه مع كونه فوقه . ومن الممتنع فى الفطرة أن يستدبره ويخاطبه مع قصده التام له وإن كان ذلك ممكناً ، وإنما يفعل ذلك مَن ليس مقصوده مخاطبته كما يفعل مَن ليس مقصوده التوجه إلى شخص بخطاب فيعرض عنه بوجهه أو يخاطب غيره ليسمع هو الخطاب ، فأما مع زوال المانع فإنما يتوجَّه إليه ، فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا من يمينه ولا من شماله ، ويدعوه من العلو لا من السفل ، كما إذا قُدِّر أنه يخاطب القمر .

وقد ثبت عنه - صلى اللّه عليه وسلم - فى الصحيحين أنه قال : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم فى الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم » ، واتفق العلماء على أنَّ رفع المصلى بصره إلى السماء منهى عنه ، وروى أحمد عن محمد بن سيرين أنَّ النبى ﷺ كان يرفع بصره فى الصلاة إلى السماء حتى أنزل اللّه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (١) فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده .

---

(١) المؤمنون : ١ - ٢

● مخالفة الجهمية للكتاب والسُنَّة والسَلَف فى إنكار علو اللّه :

فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلاً للفطرة ، لأن الداعى السائل الذى يُؤمر بالخشوع - وهو الذل والسكون - لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية مَن يدعوه ويسأله ، بل يناسب حاله الإطراق وغض البصر أمامه . وليس نهى المصلى عن رفع بصره فى الصلاة رداً على أهل الإثبات الذين يقولون : إنه على العرش - كما يظنه بعض جُهَّال الجهمية - فإنَّ الجهمية عندهم لا فرق بين العرش وقعر البحر فالجميع سواء ، ولو كان كذلك لم يُنه عن رفع البصر إلى جهة ويؤمر برده إلى أخرى لأن هذه وهذه عند الجهمية سواء .

وأيضاً فلو كان الأمر كذلك ، لكان النهى عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد . وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ ﴾ (١) فليس العبد بمنهى عن رفع بصره مطلقاً ، وإنما نُهِىَ فى الوقت الذى يؤمر فيه بالخشوع لأن خفض البصر من تمام الخشوع ، كما قال تعالى : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ (٣) .

وأيضاً فلو كان النهى عن رفع البصر إلى السماء وليس فى السماء إله ، لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات .

● لم يثبت حرف واحد عن الرسل بنفى العلو :

ولو كان مقصوده أن ينهى الناس أن يعتقدوا أنَّ اللّه فى السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو ، لبيَّن لهم ذلك كما بيَّن لهم سائر الأحكام ، فكيف وليس فى كتاب اللّه ولا سُنَّة رسوله ولا فى قول سَلَف الأمة حرف واحد يذكر فيه أنه ليس اللّه فوق العرش ، أو أنه ليس فوق السماء ، أو أنه لا داخل

---

(١) البقرة : ١٤٤ (٢) القمر : ٧ (٣) الشورى : ٤٥

العالم ولا خارجه ، ولا محايث له ، ولا مباين له ، أو أنه لا يقصد العبد إذا دعاه العلو دون سائر الجهات ؟؟ بل جميع مايقوله الجهمية من النفى ويزعمون أنه الحق ليس معهم به حرف من كتاب الله ولا سُنَّة رسوله ولا قول أحد من سَلَف الأمة وأئمتها ، بل الكتاب والسُنَّة وأقوال السَلَف والأئمة مملوءة بما يدل على نقض قولهم ، وهم يقولون : إنَّ ظاهر ذلك كفر فنؤوِّل أو نفوِّض .

فعلى قولهم ليس فى الكتاب والسُنَّة وأقوال السَلَف والأئمة فى هذا الباب إلا ما ظاهره كفر ، وليس فيها من الإيمان فى هذا الباب شيء .

والسلب الذى يزعمون أنه الحق الذى يجب على المؤمن أو خواص المؤمنين اعتقاده عندهم ، لم ينطق به رسول ولا نبى ولا أحد من ورثة الأنبياء والمرسلين ، والذى نطقت به الأنبياء وورثتهم ليس عندهم هوالحق بل هو مخالف للحق فى الظاهر ، بل حُذَّاقهم يعلمون [1] أنه مخالف للحق فى الظاهر والباطن ، لكن هؤلاء منهم مَن يزعم أنَّ الأنبياء لم يمكنهم أن يخاطبوا الناس إلا بخلاف الحق الباطن فلبَّسوا أو كذبوا لمصلحة العامة .

فيقال لهم : فهلا نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفضلاء إن كان ما تزعمونه حقاً ؟ وقد عُلِمَ أنَّ خواص الرسل هم على الإثبات أيضاً ، وأنه لم ينطق بالنفى أحد منهم إلا أن يكذب على أحدهم كما يُقال عن عمر : إنَّ النبى ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنتُ كالزنجى بينهما . وهذا مختلق باتفاق أهل العلم ، وكذلك ما نُقِل عن علىّ وأهل بيته أنَّ عندهم علماً باطناً يختلف عن الظاهر الذى عند جمهور الأمة .

---

(١) لعل أصل هذه الكلمة : « يعتقدون » لأنه ليس للجهمية علم بذلك بل ظن ولَّدته نظرياتهم الباطلة التى بيَّن الشيخ بطلانها فى عدة مواضع فى كتبه .

وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن علىّ رضى الله تعالى عنه أنه لم يكن عندهم عن النبى ﷺ شئ ليس عند الناس ، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان فى الصحيفة ، وفيها الديّات وفكاك الأسير ، وأن لا يُقتل مسلم بكافر [1] .

ثم إنه من المعلوم أن مَن جعله الله هادياً مبلّغاً بلسان عربى مبين إذا كان لا يتكلم أبداً قط إلا بما يخالف الحق الباطن الحقيقى فهو إلى الضلال والتدليس أقرب منه إلى الهدى والبيان ، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا .

• كل ما ثبت عن الرسول فى صفات الله وغيرها حق لا يعارضه الفعل الصحيح :

والمقصود أنّ ما جاء عن النبى ﷺ فى هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضاً وهو موافق لفطرة الخلائق وما جُعل فيهم من العقول الصريحة ، وليس العقل الصحيح ولا الفطرة المستقيمة بمعارضة النقل الثابت عن رسول الله ﷺ ، فإنما يظن تعارضهما مَن صَدّق بباطل من المنقول وفهم منه ما لم يدل عليه ، أو إذا اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات ، أو من المكشوفات وهو من المكسوفات ، إذا كان ذلك معارضاً لمنقول صحيح ، وإلا عارض بالعقل الصريح ، أو الكشف الصحيح ، ما يظنه منقولاً عن النبى ﷺ ويكون كذباً عليه ، أو ما يظنه لفظاً دالاً على معنى ولا يكون دالاً عليه ، كما ذكروه فى قوله ﷺ : « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض ، فمَن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه » حيث ظنوا أنّ هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا غلط منهم لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبى ﷺ فإن هذا اللفظ صريح فى أنّ الحجر الأسود ليس هو من صفات الله إذ قال هو : « يمين الله فى الأرض » فتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق ، فلا يكون اليد الحقيقية . وقوله : « فمَن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه » صريح فى أن مصافحه ومقبّله ليس مصافحاً لله ولا مقبّلاً ليمينه ، لأن المشبّه ليس هو

(١) وتحريم المدينة كمكة . وهذه الصحيفة كتب بها هذه المسائل التى سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم وكانت معلقة فى سيفه ، وقد ذكر البخارى حديثه فى عدة من كتبه أولها « العلم » .

المشبَّه به ، وقد أتى بقوله : « فكأنما » وهى صريحة فى التشبيه . وإذا كان اللفظ صريحاً فى أنه جعله بمنزلة اليمين لا أنه نفس اليمين ، كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين ، قائلاً للكذب المبين .

فهذا كله بتقدير أن يكون العرش كرى الشكل سواء أكان هو الفلك التاسع أو غير الفلك التاسع . وقد تبيَّن أنَّ سطحه هو سقف المخلوقات وهو العالى عليها من جميع الجوانب ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما فى السماء والأرض فوقه ، وأنَّ القاصد إلى ما فوق العرش بهذا التقدير إنما يقصد إلى العلو لا يجوز فى الفطرة ولا فى الشريعة مع تمام قصده أن يقصد جهة أخرى من جهاته الست ، بل هو أيضاً يستقبله بوجهه مع كونه أعلى منه كما ضربه النبى ﷺ من المثل بالقمر - ولله المثل الأعلى - وبيَّن أنَّ مثل هذا إذا جاز فى القمر - وهو آية من آيات الله - فالخالق أعلى وأعظم .

* * *

• ضلال من يُشبِّه الله تعالى بالفلك فى إحاطته أو بغير ذلك :

وأما إذا قُدِّر أنَّ العرش ليس كرى الشكل بل هو فوق العالَم من الجهة التى هى وجه ، وأنه فوق الأفلاك الكرية ، كما أنَّ وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكرى ، أو غير ذلك من المقادير التى يُقدَّر فيها أنَّ العرش فوق ما سواه وليس كرى الشكل ، فعلى كل تقدير لا يُتوَجه إلى الله إلا إلى العلو لا إلى غير ذلك من الجهات .

فقد ظهر أنه على كل تقدير لا يجوز أن يكون التوجه إلى الله إلا إلى العلو مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه ، وسواء قُدِّر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات كما يحيط بها إذا كانت فى قبضته ، أو قدِّر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها ، فهو على التقديرين يكون فوقها مبايناً لها .

فقد تبيَّن أنه على هذا التقدير فى الخالق ، وهذا التقدير فى العرش ، لا يلزم شىء من المحذور والتناقض ، وهذا يزيل كل شُبهة . وإنما تنشأ الشُبهة من اعتقادين فاسدين .. أحدهما : أن يظن أنَّ العرش إذا كان كرياً واللّه فوقه وجب أن يكون اللّه كرياً ، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالفلك التاسع من جميع الجهات .

وكل من هذين الاعتقادين خطأ وضلال ، فإنَّ اللّه تعالى مع كونه فوق العرش ، ومع القول بأنَّ العرش كرىّ ، سواء أكان هو التاسع أو غيره ، لا يجوز أن يُظَّن أنه مشابه للأفلاك فى أشكالها ، كما لا يجوز ان يُظَّن أنه مشابه لها فى أقدارها ، ولا فى صفاتها ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾[1].

بل قد تبيَّن أنه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك فى الفلك ، وأنها أصغر عنده من الحمصة والفلفلة ... ونحو ذلك فى يد أحدنا ، فإذا كانت الحمصة أو الفلفلة ، بل الدرهم والدينار ، أو الكرة التى يلعب بها الصبيان ... ونحو ذلك فى يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته ، هل يكون الإنسان كالفلك ؟ فاللّه - وله المثل الأعلى - أعظم من أن يُظَّن ذلك به ، وإنما يظنه الذين لم يُقدِّروا اللّه حق قَدْره : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2] .

وكذلك اعتقادهم الثانى - وهو أنَّ ما كان فلكاً فإنه يصح التوجه إليه من الجهات الست - خطأ باتفاق أهل العقل الذين يعلمون الهيئة ، وأهل العقل الذين يعلمون أنَّ القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان .

---

(١) الإسراء : ٤٣ (٢) الزمر : ٦٧

فقد تبيَّن أنَّ كل واحدة من المقدمتين خطأ فى العقل والشرع ، وأنه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلا إلى العلو لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يُفرض من التقديرات ، سواء أكان العرش هو الفلك التاسع أو غيره ، وسواء أكان محيطاً بالفلك كرى الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كرياً ، وسواء أكان الخالق سبحانه محيطاً بالمخلوقات كما يحيط بها فى قبضته ، أو كان فوقها من جهة العلو منا التى تلى رءوسنا دون الجهة الأخرى .

فعلى أى تقدير فُرِض به كان كل من مقدمتى السؤال باطلة ، وكان اللّه تعالى إذا دعوناه إنما ندعوه بقصد العلو دون غيره كما فطرنا على ذلك ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

« تم كتاب العرش بحمد اللّه تعالى »

* * *

تذييل

يقول الشيخ محمد رشيد رضا - صاحب منار الإسلام [1] - ومحقق الطبعة الأولى :

« رحم الله شيخ الإسلام ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، فوالله إنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه فى بيان حقيقة هذا الدين وحقيقة عقائده ، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ ، بل لا نعرف أحداً منهم أُوتِيَ مثل ما أوتى من الجمع بين علوم النقل وعلوم العقل بأنواعها مع الاستدلال والتحقيق ، دون المحاكاة والتقليد ، وغرضه من هذا الكتاب - أو الفتوى - تفنيد ما زعمه المتأولون للعرش بأنه الفلك التاسع ، من أنَّ ذلك يعارض ما ثبت فى الكتاب والسُنَّة وأقوال أئمة الأُمة من أنَّ الله تعالى على عرشه فوق سماواته ، ومن أنَّ الفطرة مؤيدة للشريعة فى أنَّ جهة العلو قِبلة الدعاء ، فهو يُثبت هذه الحقيقة

---

(١) رأينا أنّ من حق فضيلة الشيخ محمد رشيد رضا - محقق الكتاب فى طبعته الأولى - أن نترجم له فى هذه السطور القليلة ، عسى أن تفيه بعض حقه - كما ترجمنا فى صدر الكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - حتى يعرف الجيل المعاصر - من القرّاء - بعض قدره وأفضاله ، تقديراً منا له ، وتذكيراً للناس بمآثره .

ولم نقصد من هذه النبذة الموجزة التعريف بالشيخ رحمه الله ، فالشيخ أشهر من أن يُعرَّف ، وأكبر من أن يُترجم له .

وإذا كان الرجال يُعرفون بأعمالهم ، فإن أعمال الشيخ الجليل أكثر من أن تُعَد ، ومآثره أكبر من أن تُحصَى .. وعند الله وحده الجزاء الأوفى .

ولد السيد / محمد رشيد رضا ونشأ فى القلمون بطرابلس الشام عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ، ورحل إلى مصر عام ١٣٤٥ هـ (١٨٩٧ م) حيث تتلمذ على الشيخ محمد عبده ، وكان رحمه الله يعد من رجال الإصلاح الإسلامى .

=

على كل احتمال يمكن أن يكون عليه العرش ككونه كرياً أو قبة أو غير ذلك ، ولكنه لم يتكلم فى حقيقة شكل العرش بأكثر مما ورد فى كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، لأنه من عالم الغيب الذى يجب الإيمان بما ورد فيه من النصوص بغير زيادة ولا نقصان ، ولا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه لله فى علوه واستوائه عليه ولا تمثيل .. ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ »[1] .

* * *

= أصدر مجلة « المنار » لبث آرائه فى الإصلاح الدينى والاجتماعى ، ثم قصد سوريا - فى أيام حكم الملك فيصل - وانتخب رئيساً للمؤتمر السورى ، غير أنه غادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) وأقام فى مصر .

ومن آثاره - رحمه الله - « تفسير القرآن الحكيم » المعروف بتفسير المنار فى ١٢ مجلداً ولم يكمله حيث وقف به عند قوله تعالى فى الآية (٥٢) من سورة يوسف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ ، وكان ذلك فى أواخر شهر المحرم من سنة ١٣٥٤ هـ . وبدأه رحمه الله - فى شهر صفر سنة ١٣٥٣ هـ .

وكان رحمه الله تعالى يأمل فى أن يطول به العمر حتى ينجز تفسير القرآن كله ، ولكنه لقى ربه فى يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ (٢٢ أغسطس ١٩٣٥ م) أى بعد إنجاز الجزء الثانى عشر بحوالى أربعة شهور .

ويمتاز تفسيره بأنه يكاد يكون التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذى يبيّن حكم التشريع ، وسنن الله فى الإنسان ، وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر وقد أعرضوا عنها ، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها ، مراعى فيه السهولة فى التعبير ، مجتنباً مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث يفهمه العامة ، ولا يستغنى عنه الخاصة ، وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الأزهر أستاذه الشيخ محمد عبده رحمه الله .

نسأل الله الكريم : أن يتغمد الشيخ الجليل برحمته ، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأن يسكنه فسيح جناته ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ .

كما نسأله تعالى : أن يتقبل عملنا فى هذا الكتاب ، وأن يجعله فى الميزان ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .. إنه تعالى محقق الرجاء ، ومجيب الدعاء ، وهو على كل شئ قدير . (البلتاجى) .

(١) الأحزاب : ٤